مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 8 / العـدد 01 (2021)، ص : 07-29

مدرسة التفسير بالأندلس، القرطبي أنموذجا

The Andalusian exegetical school - Imam Kortobi as a model

الأستاذ: محمد مريدي

كلية الآداب جامعة الحسن الثاني. الدار البيضاء. المغرب.

تاريخ الاستلام: 2021/09/01 تاريخ القبول: 08 /2021/10 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

تناول هذا البحث التعريف بالتفسير لغة واصطلاحا، كما تطرق إلى ذكر تاريخ التفسير وبيان مراحل تدوينه، وذكر بعض مناهج التفسير، وأشهر المفسرين من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وأتباعهم. كما تناول البحث ذكر المدرسة الأندلسية للتفسير مع بيان خملة من خصائصها التي ميزتها عن غيرها. كما تطرق لمنهج الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره لآيات الأحكام مع ذكر نبذة مختصرة عن هذا الإمام المفسر.

الكلمات المفتاحية: منهج-مدرسة- تفسير – الأندلس –تدوين

Summary:

This research treats the literal and conventional definition of an exegesis of the Holy Coran, it deals with the history of exegesis, as well as the different stages of its recording, also it mentions some of the exegetical methodologies, in addition, it cites the most famous exegetes amongst the companions (may Allah bless them all) of the Prophet Muhammad (greetings and prayers of Allah be upon him) and their successors and the successors of the latters (may the mercy of Allah be upon them all) .

Furthermore, the research dealt with the Andalusian exegetical school, highlighting a bunch of its specific characteristics vis à vis other exegetical schools. Moreover, it

handled the methodology of Imam Kortobi in its exegesis of legislative Coranic verses, with a slight summary of the biography of this exegete Imam.
Keywords : Methodology - School - Exegesis - Andalusia – Recording

المؤلف المرسل: محمد مريدي

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ سورة: آل عمران، الآية: (102)..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ سورة: النساء، الآية: (1)..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ~ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ سورة: الأحزاب، الآيتان: (70-71).

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. ثم أما بعد:

لقد اعتبر الفتح الإسلامي للأندلس مع نهاية القرن الأول الهجري من أعظم الأحداث التاريخية إبان العصور الوسطى، هذا الفتح الذي أنتج حضارة إنسانية فريدة، مزجت بين مكونات الإرث الفكري الإنساني عبر التاريخ، وخلقت من خلال

ذلك ذخيرة ثقافية وحضارية متميزة، بَنَت عليها أمم أخرى تقدمها وإبداعها في جميع المجالات الفكرية والعلمية سواء منها اللغوية أو الدينية أو العلوم الحقة.

الأندلس التي استطاعت أن تحتضن مشارب دينية وعرقية مختلفة، مثلها اليهود والنصارى والبربر والصقالية والعرب والسكان الأصليين، هؤلاء الذين مزجوا بين عاداتهم وأفكارهم وثقافاتهم وموروثهم الديني، ليخلقوا من هذه الفسيفساء مظهرا من مظاهر القوة والثراء الفكري والثقافي بهذه الرقعة في جميع المجالات، كما أثثوا لنموذج حضاري مثالي في التاريخ عبر القنطرة الأندلسية، التي تجاوزت الثقافة المحلية الضيقة لتنفتح على ثقافات الأمم السابقة، وتركب حضارات الشرق والغرب قديما وحديثا.

ومما أزهر في الأندلس من العلوم؛ العلوم الشرعية الدينية، وأنا في هذا البحث المتواضع سأحاول تسليط الضوء على أحد هذه العلوم الشرعية الدقيقة، وهو التفسير.

وقد قسمت هذا البحث إلى مبحثين وخاتمة، ثم فهرست للمصادر والمراجع:

فالمبحث الأول: مدرسة التفسير بالأندلس وفيه مطلبان

المطلب الأول: التفسير وتاريخه

المطلب الثاني: مدرسة التفسير الأندلسية

المبحث الثاني: منهج الإمام القرطبي في التفسير من خلال كتابه" الجامع لأحكام القرآن" أنموذجا. وفيه مطلبان

المطلب الأول: نبذة مختصرة عن الإمام القرطبي

المطلب الثاني: منهج القرطبي في تفسير آيات الأحكام.

أما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج.

وفي الختام فإني أحمد الله وأشكره على إنجاز هذا البحث وإتمامه، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا كله صالحا ولوجهه خالصا وألا يجعل لأحد منه شيئا وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: مدرسة التفسير بالأندلس

المطلب الأول: التفسير وتاريخه

الفرع الأول: تعريف التفسير

التفسير في اللغة : يعني الإيضاح و التبيين . ووزنه تفعيل من الفسر، وهو البيان والكشف . قال الله تعالى ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا﴾.

التفسير في الاصطلاح : هو علم يفهم به كتاب الله وذلك ببيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه [1].

وقالوا في **تعريفه** : هو علم باحث عن معنى نظم القرآن بحسب الطاقة البشرية ، وبحبما تقتضيه القواعد العربية .

والغرض منه : معرفة معاني النظم .

وفائدته : حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة .

وموضوعه : كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة .

وغايته : التوصل إلى فهم معاني القرآن واستنباط حكمه ليفاز به إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

الفرع الثاني: تاريخ التفسير

القرآن كتاب عربي مبين، نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليبلغه قومه الفصحاء البلغاء ، فلم يستغلق فهمه بالإجمال على معظمهم ، إذا استثنينا ما تشابه منه. ففهمه العرب ، وكان سببا ً في دخول عدد كبير منهم في

(1) (الصباغ، 1990 ص187).

الإسلام ، ولكن معاني القرآن لا تحد ولا يحاط بها ، ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر الخلق فهماً لهذا الكتاب كان من مهماته الأساسية أن يبين للناس ما نزل إليهم .إذ القرآن يحوي نظرة إلى الحياة و الإنسان جديدة على العرب، ومن أجل ذلك فهم محتاجون إلى مزيد من الرشح و البيان لها حتى يقفوا عليها، و يعوها حق الوعي، لا سيما وأن في القرآن المجمل، والعام، والمشكل، وفيه مفردات لا يفهما بعضهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفسرها لأصحابه.

وفي عهد الصحابة رضوان الله عليهم كانت مادة التفسير قائمة على ما يأتي من الأمور التالية:

1. تفسير القرآن بالقرآن .
2. ما كان يحفظه الصحابة من تفسيرات النبي صلى الله عليه وسلم.
3. ما كانوا يستنبطونه من الآيات: وكان يعتمد ذلك على قوة فهمهم وإدراكهم.
4. ما كانوا يسمعونه من أنباء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام.

ومن أشهر هؤلاء الصحابة في التفسير: عبد الله بن عباس، عبد الله بن مسعود، علي بن أبي طالب، أبي بن كعب، أبوبكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، زيد بن ثابت، أبو موسى الأشعري، عبد الله بن الزبير.

وأهم هؤلاء في التفسير الأربعة الأوائل ، وقد تم ترتيبهم حسب أهميتهم في التفسير وكثرة ممارستهم له، وأما أوسع الصحابة اشتغالاً بالتفسير هو عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم جاء التابعون فنقلوا روايات التفسير عن الصحابة ، وزادوا فيها ما استنبطوه بأنفسهم، وما زال التفسير يتضخم في عهدهم حتى اجتمع منه الشيء الكثير. ولكن هذه الأقوال في التفسير لم تكن مجموعة ولا مرتبة بشكل منظم وفق ترتيب المصحف، بل كانت تروى منثورة متفرقة بين روايات لا علاقة لها بالتفسير، أي إن التفسير كان مختلطاً بالحديث غير مميز عنه. وكان التابعون من

أهل كل قطر يعنون برواية ما سمعوه وما ورد من التفسير عن الصحابي الذي يقيم في بلدهم. فاختص المكيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس، واختص المدنيون برواية ما ورد من التفسير عن أبي بن كعب.

واختص الكوفيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن مسعود. وهذه المدارس الثلاث أهم مدارس التفسير في عهد التابعين. فهكذا كانت رواية التابعين للتفسير، لأن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة، كما تلقوا عنهم علم السّنّة[1].

وبعد عصر التابعين جاءت مرحلة التدوين عمومًا - والتي يؤرَّخ لها عادة مع بداية النصف الثاني من القرن الهجري الثاني - والبدء بتدوين الحديث خصوصًا، بدأ التفسير يدوَّن ضمن كتب الحديث خاصة، إذ كان يُفرد له باب مستقل ضمن الأبواب التي تشتمل عليها المدونات الحديثة . ومع انتشار التدوين، واستقلال كثير من العلوم، أخذ تدوين التفسير يستقل شيئًا فشيئًا، تحدث السيوطي عن حركة التأليف في مجال التفسير بعد عصر التابعين، فقال بعد أن ذكر المفسرين من الصحابة والتابعين: "ثم بعد هذه الطبقة ألّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير شعبة بن الحجاج (ت: 160 ه)، ووكيع بن الجراح (ت: 197 ه)، وسفيان بن عيينة (ت: 198 ه)، ويزيد بن هارون (ت: 206 ه)، وعبد الرزاق (ت: 211 ه)، وآدم بن أبي إياس (ت: 211 ه)، وسنيد (ت: 226 ه)، وأبي بكر بن أبي شيبة (ت: 235 ه)، وإسحاق بن راهويه (ت: 238 ه)، وعبد بن حميد (ت: 249 ه)، وروح بن عبادة (ت:250ه)

وآخرين.

وبعدهم ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجه، وابن مردويه، وأبو الشيخ بن حيان، وابن المنذر، في آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير،

(1) (بن تيمية الحراني، 1995م، (272/13).

فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك[1].

كما تحدث أبو حيان الأندلسي عن تطور التأليف في التفسير بعد عصر التابعين وظهور الحاجة إلى التعمق في الكشف عن معاني القرآن، فقال: "ثم تتابع الناس في التفسير وألفوا فيه التآليف. وكانت تآليف المتقدمين أكثرها إنما هي في شرح اللغة، ونقل سبب ونسخ وقصص، لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب وبلسان العرب، فلما فسد اللسان وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو ألسنة ... احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التراكيب، وانتزاع المعاني، وإبراز النكت البيانية، حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها." [2].

وبدخول عصر النهضة الحديثة، وصعود ما أُطلق عليه ظاهرة "الصحوة الإسلامية" وما شهده هذا العصر من تطورات على الأصعدة كافة، بدأت تظهر العديد من الجهود الإبداعية في مجال تفسير القرآن الكريم. وكان من ملامح هذه المرحلة كذلك ظهور التفسير العلمي للقرآن الكريم .ولا ريب أن هذا التنوع والتعدد في الجهود المبذولة لتفسير القرآن الكريم أمر محمود ومشروع، ما دام مضبوطًا بضوابط الشرع وموجهاته؛ وهو في حد ذاته دليل على إعجاز هذا الكتاب العظيم.

المطلب الثاني: مدرسة التفسير الأندلسية

الفرع الأول: تعريفها

لم يكن فتح المسلمين للأندلس فتحا لأرض وإنما فتحا في العقيدة والدين والأخلاق، فقد انتشرت القيم والمبادئ الإسلامية في تلك البلاد ودخل الناس في دين الله أفواجا. لذا فقد كان أول عمل يقوم به المسلمون الفاتحون في هذه البلاد

(1) (السيوطي، 1974 م، (4/211-212).

(2) (أبو حيان الأندلسي، 1420 هـ، (1/13).

المفتوحة هو بناء المسجد، فكان أول مسجد، المسجد الذي أقامه موسى بن نصير في الجزيرة الخضراء في الأندلس[1]. ولم يكن المسجد مكانا للصلاة فحسب بل كان جامعة عظمى لتعليم الناس أمور الدين، بل كانوا يقرؤون كل العلوم في المساجد كما ذكره المقرّي[2].

ثم توسعت المدارس والمعاهد وتوسعت المساجد في حلقاتها وانتشرت المكتبات وأنشئت الجامعات في المدن الكبرى في الأندلس فكانت منارة العلم في أوربا كلها زمنا طويلا.

وبعد دخول العلوم الإسلامية الأندلس وبعد أن تجاوزت أطوار النشأة في المشرق، استفاد الأندلسيون من مدارس التفسير المشهورة في المشرق كمدرسة بن عباس وبن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم،كما استفادوا من كتب التفسير المشهورة في المشرق كتفسير الطبري والماوردي والزمخشري وغيرهم، لذلك كان للتفاسير الأندلسية مكانة كبيرة.

وعليه فإن نشأتة التفسير في الأندلس تختلف عن نشأته في المشرق، لأن نشأته في المشرق نشأة ولادة وتكوين، وأما في الأندلس فكانت نشأة تلقي وإضافة. وقد حدث اتصال وارتحال بين علماء التفسير في المشرق والمغرب والأندلس. وحتى لا يحصل خلط بين هؤلاء فإنا قد اعتبرنا من رجال المدرسة الأندلسية من اتصف بثلاث صفات:

1-أن تكون ولادته في الأندلس.

2-أن ينشأ فيها فلا يرحل في صغره.

3-أن يكون تعليمه الأولي وثقافته الأولى على أرض الأندلس. ولا يهمنا بعد ذلك من

(1) (الدباغ، 1320هـ، (10/1).

(2) (المقري التلمساني، 1968م، (205/1).

رحل إليها[1].

وبهذا التحديد نستطيع حصر أعلام المدرسة الأندلسية في التفسير، وإن كان أشهر هؤلاء المفسرين: بقي بن مخلد، أبو بكر بن العربي، ابن عطية، أبو عبد الله القرطبي، ابن جُزيّ الكلبي الغرناطي، أبو حيان.

أما بقي بن مخلد فلم يصلنا من تفسيره إلا أوراق قليلة لا تزال مخطوطة، أما بقية المفسرين فقد وصلت كاملة وتمت طباعتها كلها، وفيها كفاية لتحديد منهج وقواعد المدرسة الأندلسية.

الفرع الثاني: منهجها

وإذا نظرنا في تفاسير علماء الأندلس التي وصلتنا وطبعت، لا شك أننا نستطيع التعرف على خصائص هذه المدرسة في التفسير وإن اشتركت معها في بعضها بعض المدارس الأخرى. ومن ذلك التفسير بالمأثور إذ كانوا يعتنون بتنقيح الآثار والتدبر فيها والنظر والتفكر والموازنة والترجيح، والعناية بما صح منها كما قال ابن العربي: "ولقد ألقيت إليكم وصيتي في كل وقت ومجلس ألا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده"[2]، ومن ذلك كذلك انتقاد ابن حيان لبعض المفسرين لذكرهم ما لم يصح من الأحاديث[3].

وقد جمعت هذه المدرسة في تفسيرها - كما قال بعض الباحثين -كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث [4].بل إن تفسير ابن جزيّ وهو من أصغر تفاسير هذه المدرسة حجما إلا أنه يحتوي على ثروة من الحديث النبوي[5].

(1) (زيد عمر، 1404هـ، (1/1).

(2) (المعافري الاشبيلي، 2003 م، (583/2).

(3) (أبو حيان الأندلسي، 1420 هـ، (5/1).

(4) (زيد عمر، 1404هـ، (ص517).

(5) (الزبيري، 1987م، (ص:402).

ومن خصائص هذه المدرسة كذلك الاهتمام بإيراد أقوال الصحابة والتابعين من كتب التفسير السابقة، فأكثروا النقل عن الطبري والزمخشري والنقاش والرازي وابن النقيب ومكي بن أبي طالب والمهدوي وغيرهم، وقد علل بعض الباحثين اهتمامهم بإيراد هذه النقولات عن هذه التفاسير بأن رجال هذه المدرسة اعتبروا تفسير الصحابي من قبيل الموقوف وأنه مجرد رأي ولذا فهو عرضة للخطأ لذلك لا يرون بأسا في قرن أقوال الصحابة والتابعين بأقوال غيرهم من المفسرين ويفاضلون بين الأقوال جميعها[1].

ومن خصائص هذه المدرسة كذلك، محاربة المعتزلة وأفكارهم، بحيث لا لا يعرضون لتفسير آية فيها للمعتزلة تأويل إلا بينوه وكشفوه وأبطلوا أدلتهم وشنعوا عليهم، ورغم إكثارهم النقل عن الزمخشري وإعجابهم بتفسيره من الرد عليه وإبطال اعتزاله حتى قال له أبو حيان في معرض الرد عليه في إنكاره الرؤية:

لو صح في الإسلام عقدك لم تقل بالمذهب المهجور من نفي الصفة[2]

وكذا كان موقفهم من الرافضة حيث قال افمام القرطبي: "وقد طعن الرافضة قبحهم الله تعالى في القرآن"[3]، وكذا كان موقفهم من الفرق الضالة الأخرى.

إلا أن أصحاب هذه المدرسة قد أُنكِر عليهم اتباعهم مذهب مالك وتعصبهم له في الفروع ومع ذلك خالفوه في الأصول واستبدلوا مذهبه بمذهب الأشاعرة وهذا والله سبة وعار، كما قال الكرجي :"وقد افتتن خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية وهذا والله سبة وعار وفلته تعود بالوبال والنكال وسوء الدار على منتحل مذهب هؤلاء الأئمة الكبار فإن مذهبهم ما رويناه من تكفيرهم

(1) (المشيني، 1989م، (ص241-243بتصرف يسير).

(2) (أبو حيان الأندلسي، 1420 هـ، (386/4).

(3) (القرطبي، 1964 م، (56/1).

الجهمية والمعتزلة والقدرية والواقفية وتكفيرهم اللفظية"[1] .وهذا الذي ذكرته من مواجهة هذه المدرسة للفرق الضالة إنما هو على سبيل الإجمال إذ من المتعذر ذكر موقف كل مفسر منهم على حدة، والمقام يطول وحسبي ما ذكرت.

ومن خصائص هذه المدرسة نصرة المذهب المالكي بالخصوص، حيث كان مذهب الأوزاعي هو السائد في الأندلس إلى أن دخل مذهب مالك وانتشر حتى اندثر ونسي مذهب الأوزاعي وكان أول من أدخل مذهب مالك للأندلس زياد شَبْطُون[2]،ولما تولى هشام بن عبد الرحمان الخلافة وكان شديد الحب والإعجاب بالإمام مالك-رحمه الله- حمل الناس على اتباعه[3].

ومن خصائص هذه المدرسة كذلك اهتمامهم باللغة العربية، إذ إنهم نشأوا في بيئة تهتم باللغة وتلقنها لأطفالهم مع القرآن، حيث قال ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملَكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي"[4]،لذا تميز تفسير هذه المدرسة بالاهتمام باللغة والعناية بها، ويظهر هذا الاهتمام في ردهم التفاسير الخارجة عن مقاصد اللغة، وأكدوا ذلك في مقدمة تفاسيرهم، قال ابن عطية: "وأثبت أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز وأهل القول بعلم الباطن وغيرهم فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبهت عليه"[5]،ورد ابن جزي التفسير الباطني حيث قال: "ومنهم من توغل في الباطنية

(1) (بن تيمية، 1995م، (177/4).

(2) (الأزدي الميورقي 1966 م، (218)، (الضبي، 1967 م، (324)، (المقري التلمساني، 1968م، (251/2).

(3) (أرسلان، 1939م،(255/1).

(4) (ابن خلدون، 1408هـ، (1/ 742).

(5) (بن عطية، 1422 هـ، (10/1).

وحمل القرآن على ما لا تقتضيه اللغة العربية"[1].ومع هذا الالتزام برد كل ما خالف ظاهر اللغة إلا أننا نجد بعض رجال هذه المدرسة كالقرطبي وابن حيان وابن جزي ينقلون عن الصوفية بعض تفاسيرهم، إلا أن هذا قليل جدا مع التعقيب عليه أحيانا بأن اللفظ لا يقتضيه وإن كان حسنا.

المبحث الثاني: منهج الإمام القرطبي في التفسير من خلال كتابه" الجامع لأحكام القرآن" أنموذجا

المطلب الأول: نبذة مختصرة عن الإمام القرطبي

اسمه ونشأته:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري القرطبي، ولم تذكر كتب التاريخ سنة ولادته؛ لكنه من أهل قرطبة، وقد رجّح الدكتور مفتاح السنوسي أن ولادة القرطبي في أواخر القرن السادس، أو مستهل القرن السابع[2]،ثم رحل إلى صعيد مصر واستقرّ بمنية أبي خُصَيب[3] واستقرّ فيها إلى أن توفي في شوال سنة 671 هـ.

مكانته العلميّة:

كان – رحمه الله – من العلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، أوقاته معمورة ما بين عبادةٍ وتصنيف، وله تصانيف تدل على إمامته وكثرة اطلاعه وفضله، فمن تصانيفه كتابه ((الجامع لأحكام القرآن)) وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً[4]، وكتابه ((الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى))، وكتابه ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة))، وكتابه ((قمع الحرص بالزهد والقناعة

(1) (ابن جزي، 1416 هـ، (13/1).

(2) (بلعم، 1998م، (ص 86) .

(3) مدينة كبيرة على شاطئ النيل في شمال أسيوط في مصر.(انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي 218/5).

(4) (بلعم، 1998م، (ص 86) .

)) وغير ذلك من الكتب، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي ρ، وكان طارح التكلّف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقيّة، وقد سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب ((المُفهِم في شرح مسلم)) بعض هذا الشرح، وحدّث عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي اليحصبي، وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد البكري وغيرهما.

المطلب الثاني: منهج القرطبي في تفسير آيات الأحكام.

سأُركّز في هذا المبحث على منهج القرطبي رحمه الله في تفسيره لآيات الأحكام خاصة، وذلك استقراءً من بعض المواضع من تفسيره، والتي تتعلّق بالأحكام الفقهيّة، وهذه الآيات هي:

1) آيات الصيام 183 – 186 من سورة البقرة.
2) آية الإحصار في الحج 196 من سورة البقرة.
3) آيات القتل 92 – 94 من سورة النساء.
4) آية الوضوء 6 من سورة المائدة.
5) آية الغنائم 41 من سورة الأنفال.

وقد اتّضح لي من خلال تأمل تفسير الآيات المتقدّمة أن منهجه فيها ما يلي:

-تقسيم الآية إلى مسائل.

وهذا واضح شهير في تفسيره – رحمه الله – وقد نص عليه في مقدّمة كتابه كما تقدّم، فيُقسّم الآية إلى عدة مسائل بحسب الأحكام التي تتضمنها، كقوله في آية القتل: "فيه عشرون مسألة"[1]وقوله في آية الغنائم: "فيه ست وعشرون مسألة"[2].

(1) (القرطبي، 1964 م، (201/5).
(2) المصدر السابق (3/8)

ومما يلاحظ على هذه المسائل أنها ليست كلّها في ذكر المسائل والأحكام الفقهيّة بل قد تشتمل على بيان بعض الفضائل كقوله في المسألة الثانية من آيات الصيام: "الثانية: فضل الصوم عظيم، وثوابه جسيم ..." [1].

وقد تشتمل على تفسير لا علاقة له بالمسائل الفقهية كقوله في آخر مسألة في آية الوضوء: "الثانية والثلاثون: قوله تعالى:﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيكُمْ مِن حَرَجٍ**﴾أي من ضيق في الدين ..." [2]

وقد يذكر أحيانا بعض مسائل العقيدة، ويرد على أهل التعطيل والفلاسفة وغيرهم. [3]

-مراعاة الدليل وعدم التعصب للمذهب.

وهذا الأمر مما يميز الإمام القرطبي - رحمه الله – ولعلّ هذا – والله أعلم - مما زاد من قيمة هذا التفسير المبارك، فيُلاحَظ عند ذكره لمسائل الخلاف بين الأئمة لا يتعصب لمذهبه المالكي بل يتجرد مع الدليل حتى يصل إلى ما يراه أنه الحق، وهذا كثير واضح في تفسيره[4].

ومن أمثلة ذلك أيضاً مسألة تقديم الحلق على الذبح في يوم النحر، فقد وضّح أن ظاهر المذهب المنع من تقديم الحلق على الذبح إن كان عامداً قاصداً، ثم قال:" والصحيح الجواز، لحديث ابن عباس أن النبي ρ قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال: "لا حرج"[5]. "[6].

ومن الأمثلة مخالفته لمذهب الإمام مالك في تقسيم القتل إلى عمْدٍ وخطأ في آية القتل حيث ذكر رأي الجمهور في التقسيم إلى عمد، وشِبه عمد، وخطأ.

---

(1) المصدر السابق (183/2)

(2) المصدر السابق (72/6)

(3) انظر المسألة الرابعة عشرة في آيات الصيام في قوله تعالى ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾

(4) (الذهبي، 1998م، (ص: 267).

(5) رواه البخاري (رقم1734) ومسلم (رقم 1307).

(6) (القرطبي، 1964 م، (212/5).

قال: "قلت: وهو الصحيح، فإن الدماء أحق ما احتيط لها إذ الأصل صيانتها في أُهُبِها[1]، فلا تستباح إلا بأمر بين لا إشكال فيه، وهذا فيه إشكال، لأنه لما كان مترددا بين العمد والخطأ حكم له بشبه العمد"[2].

فمما تقدّم يتضّح وبجلاء أن القرطبي – رحمه الله – يدور مع الدليل حيث دار فإذا كان الدليل يؤيّد غير ما رجّحه الإمام مالك أخذ به، وهذا من سعة الأفق.

-تحقيق مذهب المالكيّة.

مما يتميّز به القرطبي كذلك في تفسيره التحقيق التام للمذهب المالكي حيث يذكر روايات الإمام مالك في المسألة، وقول أئمة المذهب، ومن وافق، ومن خالف، وذلك في كثير من المسائل، ومع ذلك قد يرجح بين هذه الأقوال، والأمثلة في ذلك كثيرة:

فمن هذه الأمثلة مسألة دخول المرافق في الغسل في آية الوضوء حيث قال في المسألة السادسة:" فقال قوم: نعم ، وقيل: لا يدخل المرفقان في الغسل، والروايتان مرويّتان عن مالك، الثانية لأشهب، والأولى عليها أكثر العلماء وهو الصحيح"[3].

ومن الأمثلة أيضاً ما ذكره في آية الإحصار في الحج في المسألة الأولى عند تعيين المانع في الإحصار حيث أورد قول ابن العربي أن المانع هو العدوّ خاصة ثم قال ابن العربي: وهو اختيار علمائنا.

فقال القرطبي: "قلت: ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار علمائنا فلم يقل به إلا أشهب وحده، وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا وقالوا: الإحصار إنما هو

(1) الأهب: بضم الهمزة والهاء، جمع إهاب، وهو الجلد.

(2) (القرطبي، 1964 م، (2/258-259).

(3) المصدر السابق (58/6).

المرض، وأما العدو فإنما يقال فيه: حصر حصراً فهو محصور، قاله الباجي في المنتقى"[1].

-ذكر الشواهد من أقوال العرب وأشعارهم

ومن منهج القرطبي رحمه الله في تفسيره لآيات الأحكام ذكر الشواهد على بعض المسائل من أقوال العرب وأشعارهم[2]،حيث يجعل لغة العرب هي الفيصل في الحكم، وذلك ليقينه أن القرآن نزل بلغة العرب وبما يعرفونه من ألفاظ.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره من الخلاف في توجيه قراءة ﴿وأرجلِكُم﴾ بالخفض في آية الوضوء في المسألة الثالث عشرة حيث قال: "فإذا ثبت بالنقل عن العرب أن المسح يكون بمعنى الغسل فتَرجَّحَ قولُ من

قال: إن المراد بقراءة الخفض الغسل.

وقال: والعامل في قوله ﴿وأرجلكم﴾ قولُه: ﴿فاغسلوا﴾ والعرب قد تعطف الشيء على الشيء بفعل ينفرد به أحدهما تقول: أكلت الخبزَ واللبن أي وشربت اللبن، ومنه قول الشاعر: علفتُها تبناً وماءً بارداً، وقال آخر:

ورأيتُ زوجَك في الوغى متقلِّداً سيفاً ورُمْحاً

التقدير: علفتها تبناً وسقيتها ماءً، ومتقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً" [3].

-اهتمامه بالإعراب .

فهو رحمه الله كثيراً ما يذكر موقع الكلمة من الإعراب، وخصوصاً ما له علاقة بفهم المقصود من الآية، وهذا الأمر أكثر من أن يُحصر.

مثال ذلك قوله في آية الإحصار في الحج في المسألة الحادية عشرة عند قوله تعالى: ﴿...فَمَا اسْتَيسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾ قال:" (ما) في موضع رفع، أي فالواجب

(1) (القرطبي، 1964 م، (247/2).

(2) المصدر السابق (8/8-9).

(3) (القرطبي، 1964 م، (184/2).

أو فعليكم ما استيسر، ويحتمل أن يكون في موضع نصب، أي فانحروا أو فاهدوا"[1].

ومن الأمثلة أيضاً ما ذكره في آية الصيام في المسألة الثالثة عند قوله تعالى: ﴿ .. كَمَا كُتِبَ عَلى الَّذِين مِن قَبلِكُم﴾ قال: "الكاف في موضع نصب على النعت، التقدير كتاباً كما، أو صوماً كما، أو على الحال من الصيام، أي كتب عليكم الصيام مشبها كما كتب على الذين من قبلكم. وقال بعض النحاة: الكاف في موضع رفع نعتاً للصيام، إذ ليس تعريفه بمحض، لمكان الإجمال الذي فيه بما فسرته الشريعة، فلذلك جاز نعته بـ (كما) إذ لا ينعت بها إلا النكرات، فهو بمنزلة كتب عليكم صيام، وقد ضعف هذا القول، و (ما) في موضع خفض، وصلتها ﴿كتب على الذين من قبلكم ﴾، والضمير في ﴿كُتِب﴾ يعود على (ما)" [2].

-اهتمامه بالمسائل الأصوليّة.

إن المتأمّل لتفسير القرطبي يستطيع أن يُدرك أنه – رحمه الله – فقيه أصولي فهو يخرّج بعض المسائل الفقهيّة على المسائل الأصوليّة، وقد ورد ذلك في مواضع من تفسيره :

فمن ذلك ما أورده في المسألة الثالثة في آية الوضوء عند الكلام على حكم غسل الوجه قال: "وإذا تقرر هذا من حكم الوجه فلا بد من غسل جزء من الرأس مع الوجه من غير تحديد، كما لا بد على القول بوجوب عموم الرأس من مسح جزء معه من الوجه لا يتقدّر، وهذا ينبني على أصل من أصول الفقه وهو: أن ما لا يتم الواجب إلا به واجب مثله"[3].

ومن الأمثلة أيضاً ما ذكره في المسألة السابعة والعشرون من آية الوضوء عند قوله تعالى: ﴿وإنّ كُنتم مَرْضَى أو عَلى سَفَرٍ أو جَاءَ أحدٌ مِنكم مِنَ الغَائط

(1) المصدر السابق (251/2)

(2) المصدر السابق (64/6)

(3) المصدر السابق (87/6).

..﴾الآية قال: "تقدّم في (النساء) مستوفى، ونزيد هنا مسألة أصولية أغفلناها هناك، وهي تخصيص العموم بالعادة الغالبة، فإن الغائطَ كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين كما بيناه في (النساء) فهو عام، غير أن جُل علمائنا خصّصوا ذلك بالأحداث المعتادة الخارجة على الوجه المعتاد، فلو خرج غير المعتاد كالحصى والدود، أو خرج المعتاد على وجه السلس والمرض لم يكن شيء من ذلك ناقضاً... إلى أن قال: وتتمته في كتب الأصول"[1].

فهذا يدل على أن القرطبي – رحمه الله - يهتم بالمسائل الأصوليّة إلا أنه يؤْثر جانب الاختصار وعدم التطويل في ذكرها.

-اهتمامه بصحة الأحاديث.

إن مما يُميّز منهج القرطبي – رحمه الله – في تفسير آيات الأحكام اهتمامه بالجانب الحديثي في المسائل إذا كان الدليل على المسألة حديثاً، فهو يجمع بين الفقه والحديث، وهذه ميزة مهمة؛ لأنّ بعض الفقهاء لا يلتفت إلى التحقق من صحة الحديث عند إيراده شاهداً على المسألة، وقد وقفت على بعض الأمثلة التي توضّح اهتمام القرطبي بهذا الجانب:

فمن ذلك ما أورده في المسألة السابعة من آيات الصيام عند الكلام على وجوب التتابع في صوم القضاء بعض الأحاديث في ذلك فقال: "اختلف الناس في وجوب تتابعها على قولين ذكرهما الدارقطني في سننه، فروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت ﴿فعدة من أيام أخر متتابعات﴾ فسقطت (متتابعات) قال: هذا إسناد صحيح.

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"من كان عليه صوم من رمضان فليَسْرده ولا يقطعه" في إسناده عبد الرحمن ابن إبراهيم

(1) (القرطبي، 1964 م، (6/69-70)

ضعيف الحديث، وأسنده عن ابن عباس في قضاء رمضان (صمه كيف شئت)"[1].

كما يلاحظ أن القرطبي أحياناً ينقل تضعيف بعض الأئمة للحديث كما في المسألة الحادية والعشرين في مدة المسح للمسافر قال :"ويمسح المسافر عند مالك على الخفين بغير توقيت، وهو قول الليث بن سعد، قال ابن وهب سمعت مالكاً يقول: ليس عند أهل بلدنا في ذلك وقت. وروى أبو داود من حديث أبي بن عمارة أنه قال: يا رسول الله أمسح على الخفين ؟ قال: **نعم** قال: يوماً ؟ قال: **(يوماً)** قل: ويومين ؟ قال: **(ويومين)** قال: وثلاثة أيام ؟ قال: **(نعم وما شئت"**، في رواية "**نعم وما بدا لك"** ، قال أبو داود: وقد اختلف في إسناده وليس بالقوي[2]"[3].

-ذكر سبب الخلاف في المسألة.

في بعض المواضع من تفسير القرطبي يلاحظ أنه يذكر سبب خلاف الفقهاء في المسألة، وهذا الأمر له أهميّة كبيرة، فإذا علم الفقيه سببَ الخلاف عاد إليه وحقّقه إن كان من المجتهدين.

ومن أمثلة المسائل التي ذكر القرطبي سبب الخلاف فيها ما ذكره في المسألة الثالثة في آية الوضوء في مسألة غسْل ما وراء العِذار إلى الأذن، وهو ما خلف الصُّدغ[4] الذي من وراء شعر اللحية قال: "وسبب الخلاف هل تقع عليه المواجهة أم لا ؟ والله أعلم، وبسبب هذا الاحتمال اختلفوا هل يتناول الأمر بغسل الوجه باطن الأنف والفم أم لا؟"[5].

---

(1) المصدر السابق، (189/2)

(2) سنن أبي داود ،كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح، رقم 158

(3) (القرطبي، 1964 م، (67/6).

(4) بضم الصاد هو جانب الوجه من العين إلى الأذن-(المعجم الوسيط،510/1)

(5) (القرطبي، 1964 م، (57/6).

-ذكر مسائل الإجماع والاتفاق.

ومما يميّز تفسير الإمام القرطبي – رحمه الله – أنه يذكر في ثنايا المسائل الفقهيّة في تفسيره ما أجمع عليه العلماء أو ما اتفقوا عليه، وقد لاحظتُ ذلك كثيراً عند قراءتي لتفسيره.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في المسألة الثالثة في آيات الصيام: "اتفق العلماء على أن المسافر في رمضان لا يجوز له أن يبيّت الفطر، لأن المسافر لا يكون مسافراً بالنية بخلاف المقيم، وإنما يكون مسافراً بالعمل والنهوض، والمقيم لا يفتقر إلى عمل، لأنه إذا نوى الإقامة كان مقيما في الحين، لأن الإقامة لا تفتقر إلى عمل فافترقا.

ولا خلاف بينهم أيضا في الذي يؤمل السفر أنه لا يجوز له أن يفطر قبل أن يخرج، فإن أفطر: فقال ابن حبيب: إن كان قد تأهب لسفره وأخذ في أسباب الحركة فلا شيء عليه، وحُكي ذلك عن أصبغ وابن الماجشون"[1].

فهو هنا كأنه يُحرر محل النزاع في المسألة فيذكر ما أجمعوا واتفقوا عليه ثم يذكر ما حدث فيه الخلاف.

ومثله قوله في آيات القتل في المسألة العاشرة: "ولا خلاف بين العلماء أن الجنين إذا خرج حيا فيه الكفارة مع الدية، واختلفوا في الكفارة إذا خرج ميتا، فقال مالك: فيه الغرة والكفارة، وقال أبو حنيفة والشافعي: فيه الغرة ولا كفارة"[2].

(1) المصدر السابق (186/2)

(2) المصدر السابق (208/5)

خاتمة:

خلصت في هذا البحث إلى ما يلي:

-علم التفسير علم قائم منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

-ظهر علم التفسير في الأندلس مع الفتح الإسلامي.

-المدرسة الأندلسية في التفسير لها خصائص عديدة.

-أن الإمام القرطبي جمع في هذا الكتاب جميع الأحكام الفقهيّة التي تمر من خلال آيات القرآن الكريم، ويُفصّل القول فيها بذكر أقوال العلماء.

-أن الإمام القرطبي أحد أئمة المذهب المالكي المحققين للمذهب.

-أن طريقة القرطبي رحمه الله في تقسيم الآيات إلى مسائل تُعتبر من أنفع الطرق في تفسير آيات الأحكام وشمولية الموضوعات، ولعلّه بذلك قد سبق الطرق الحديثة في عمل البحوث

والرسائل العلميّة.

-يُبيّن القرطبي رحمه الله أحياناً سبب الخلاف في المسألة الفقهيّة، مع بيانه لمواضع الإجماع والاتفاق، ومواضع الاختلاف، ويعتني بتخريج الفروع الفقهيّة على المسائل الأصولية، فهو فقيه أصولي.

هذا ما تيسّر لي جمعه وترتيبه في هذا البحث المبارك، والله أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

- الضبي أبو جعفر(1967 م) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة-مصر.

-أرسلان (1939م) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان.

-الذهبي، التفسير والمفسرون مكتبة وهبة، القاهرة-مصر.

-بلعم (1998م) القرطبي حياته وآثاره ومنهجه في التفسير ط.1 جامعة قار يونس، بنغازي-ليبيا.

- بن تيمية(1995م) مجموع الفتاوى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.

- زيد عمر(1404ه) المدرسة الأندلسية في التفسير، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، إشراف: د. محمد بن عبد الرحمن الراوي.

- أبو داود السِّجِسْتاني(2009م) سنن أبي داود ط.1 دار الرسالة العالمية، دمشق-سوريا.

- بن عطية أبو محمد الأندلسي المحاربي(1422ه) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ط.1 دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

- ابن خلدون أبو زيد الحضرمي الإشبيلي(1403ه) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ط.2 دار الفكر، بيروت-لبنان.

-السيوطي جلال الدين(1974م) الإتقان في علوم القرآن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-الدباغ عبد الرحمن(1320ه) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس 1320ه.

- الزبيري علي(1987م) ابن جزي و منهجه في التفسير ط.1 دار القلم، دمشق-لبنان.

- المقري التلمساني لسان الدين(1968م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ط.1 دار صادر، بيروت-لبنان.

-ابن جزي محمد (1416ه) التسهيل لعلوم التنزيل ط.1 شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت-لبناند.

- البخاري محمد(1422ه) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ط.1 دار طوق النجاة بيروت – لبنان.

-القرطبي محمد(1964م) الجامع لأحكام القرآن ط.2 دار الكتب المصرية، القاهرة-مص.

-الميورقي الحَمِيدي محمد(1966) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة-مصر.

-أبو حيان الأندلسي محمد(1420ه) البحر المحيط دار الفكر، بيروت-لبنان.

-القشيري النيسابوري مسلم المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.

-المشيني مصطفى(1989م) مدرسة الأندلس في التفسير مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت –لبنان؟

- المعافري الاشبيلي محمد(2003م) أحكام القرآن ط.3 دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

- الصباغ محمد (1990م) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ط.3 المكتب الإسلامي بيروت-لبنان.